١٤

الشيخ محمّد ناصر الدّين الألباني

تفضل شيخنا أمتع الله بحياته فأملى علينا إجاباته على نقاط الاستطلاع في كلمات موجزة لم يدع له عمله الكبير في خدمة السنّة مجالاً للتبسط فيها ، فكان علينا أن نتخذ منهـا منافذ للإطلال على تلك الحياة ، التي يسر للكثيرين من المعنيين بالسنّة المطهرة أن يتعرفوها عن كثب .

منبت الشيخ :

إنه محمد ناصر الدين أبو عبد الرحمن ويلقب « بالألباني » ، ولد في كنف آله بأشقودرة عاصمة القطر الألباني أيامئذ ، من أسرة متواضعة بعيدة عن الغنى ، يغلب عليها الاشتغال بالعلوم الدينية ، وكان والده الحاج نوح من كبار مشايخ ألبانية ، تلقى علومه في إسطنبول ، وعاد إلى بلده ليعمل في خدمة الدين تعليماً للأطفال وتسديداً للكبار .

والبيئة التي استقبل فيها الشيخ عهد حداثته الأولى مطبوعة باللون الإسلامي المحافظ في كل شيء ، حتى جاء أحمد زوغو ــ ملك ألبانية آنئذ ــ فطلع عليها بتغييرات اجتماعية كانت صدمة هزّت أركان تلك البيئة ، إذ جعل يتعقب خطوات طاغية تركيا أتاتورك ، فألزم المرأة الألبانية بنزع الحجاب ، وأتبع

ذلك بالقبعة .. ومنذ ذلك اليوم بدأت هجرة الذين يخافون على دينهم . وكانت أسرة الشيخ نوح في طليعتهم ، إذ كان أول المهاجرين من ألبانية إلى سورية .

دراسته العربية :

وفي دمشق بدأ الغلام المهاجر دراسته العربية ، فالتحق وإخوته بمدرسة جمعية الإسعاف الخيري ، وكان مقرها بجوار البناء الأثري المشهور بقصر العظم في حي البزورية ، واستمروا على ذلك حتى أشرفوا على نهاية المرحلة الابتدائية ، وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين ، وأصاب المدرسة حريق أتى عليها ، فانتقلوا عنها إلى مدرسة أخرى بسوق ساروجة ، وهناك أنهى المترجَم دراسته الأولى ، ومن ثم انصرف إلى متابعة دراسته المنظمة على المشايخ ، فعلى والده يتلقى القرآن تلاوة وتجويداً مع بعض الفقه الحنفي ، ويقرأ عليه بعض كتب الصرف . وعلى الشيخ سعيد البرهاني قرأ كتاب « مراقي الفلاح » وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة .. ولم يحصل على إجازات في هذه القراءات لأنه – كما أخبرنا – لم يطلبها ، وكل ما أحرزه من ذلك إجازة في الحديث منحه إياها المرحوم علامة حلب الشيخ راغب الطباخ إثر مقابلة له بوساطة الأستاذ محمد المبارك ، الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه من إقبال الفتى الألباني على علوم الحديث وتفوقه فيها ، فلما استوثق من ذلك خصه بإجازته تقديراً واعترافاً .

مؤثرون في حياته :

يقول الشيخ : إن أول الرجال تأثيراً في نفسه هو والده ، ويحدد أثره في ناحية التدين والعبادة ، إذ كان يصحبه إلى المساجد ، ولا سيما أيام الجُمَع ، كما كان يأخذه لزيارة المقابر ، وبخاصة من يعتقد ولايتهم وفضل الصلاة عندهم ، كالشيخ ابن عربي والشيخ النابلسي . وبهذه الدوافع يذهب به للصلاة في المسجد

الأموي ظناً منه أنها هناك أفضل من سواها ، لمـــا زعموا من وجود قبر نبي الله يحيى فيه .

يقول الشيخ: « فلم أزل على خطى والدي في هذا الاتجاه حتى هداني الله إلى السنّة ، فأقلعت عن الكثير مما كنت تلقيته عنه ممـا كان يحسبه قربة وعبادة » .

وهنا يحدثنا الشيخ عن بعض الجوانب التي لا يحسن أن نجهلها مما كان بينه وبين ذلك الوالد ، الذي يصفه بأنه شديد التعصب لمذهبـه الحنفي ، فيقول : « كنت قد أكببت في شغف كبير على دراسة السنّة ، فإذا أنس مني ذلك جعل يحذرني قائلاً « علم الحديث صنعة المفاليس » ولكن على الرغم من كل مـا جرّه ذلك التباين من خلاف فكري بيني وبينه ، فقد صار بنـا الأمر إلى كثير من التقارب في أواخر حياته ، إذ كان يقول في إثر كل نقاش « أنا لا أنكر أنك عدت إليّ ببعض الفوائد العلمية التي لم أكن على بينة منها قبل ذلك ، مثل عدم مشروعية القصد إلى الصلاة عند قبور الصالحين » .

بواكير عمله العلمي :

يقول الشيخ : « والحق أن هذه المسألة من أوائل الأسباب التي انفصلت بها عن معظم المشايخ ، إذ كانوا فيها على طريقة والدي ، فكان من بواكير ما بدأت به مما يشبه البحث العلمي أن تتبعت هذه التضية في بعض المراجع الفقهية والحديثية مما تحتوي مكتبة والدي ، فكتبت بعض الصفحات ذهبت فيهـا إلى كراهة الصلاة تحريماً في تلك المواطن ، وبخاصة المساجد المبنية على قبور الأنبياء والأولياء ، مستدلاً على ذلك بما وقعت عليه من أقوال العلماء في تلك المراجع . وقدمت رسالتي الى شيخي البرهاني في الأواخر من أيام رمضان ، فوعدني بردّ جوابها بعد العيد ، فلما جئته تبسم لي وقال : « لم تصنع شيئاً لأن المظان التي نقلت عنهـا لا تعدو حاشية ابن عابدين ومراقي الفلاح وليست بمصادر للفقه .. وقد صدمت بهذا الجواب وعلمت أن الشيخ لم يستوعب كل ما كتبته ، إذ كانت

نقولي عـن « عمدة القاري » و « مرقاة المفاتيح » و « مبارق الأزهار » و « حاشية الطحطاوي » ، وهي من المراجع المعتبرة عند أهل العلم .. ولهذا رأيت أن أتابع المسألة في دائرة أوسع ، وهكذا مضيت في البحوث والتنقيب حتى استكملت الفكرة بأدلتها من الكتاب والسنّة وأقوال الأئمة ، فكان من هذا كتابي المعروف باسم « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » .

وإشارة الشيخ إلى بعض أسباب الخلاف العلمي بينه وبين والده ذكرتني بما سمعته من أحاديث بعضهم حول الموضوع وتوكيد هذا البعض على ذلك الخلاف لإيهام السامعين بأنه من المآخذ الكبيرة على أبي عبد الرحمن ، لذلك رأيت أن أسأله المزيد من الإيضاح لهذه الناحية، فكان في أجوبته ما خلاصته: أن أكبر أسباب الخلاف مع أبيه – فضلاً عن التعصب المذهبي – يعود إلى تشدد الوالد في الحفاظ على تقاليد لا سند لها من الدين ولا من المذهب ، وكمثل من ذلك يذكر أن عدداً من الخطّاب تقدم بطلب ابنته فردهم لأسباب كثيرة، ولكنها متشابهة..ففلان أمرؤ صالح ولكن أخاه شرطي يعتمر القبعة. وفلان كذلك إلا أن له قريباً يقتني مذياعاً ... حتى إن أحد أصدقائه من مشايخ دمشق خطبها إليه فقال له : « أنت عندي نعم الكفء لولا أنك على المذهب الشافعي » .

طرائف ومفارقات :

ومن طرائف هذه المفارقات ما كان يراه ذلك الوالد – رحمه الله – من أن كل حشو للضرس أو السن يمنع زوال الحدث الأكبر ، فمن حشا هذا أو ذاك لم يطهر من جنابة قط ، وبالتالي لا تصح له صلاة .. وقد أخذ بذلك الرأي الكثيرون من مهاجري ألبانية الذين يأخذون عنه العلم . وحدث أن كبير بنيه قد حشا ضرساً له، وانتهى خبره إلى والده فسأله فاعترف له، فخيره بين أمرين إما أن يقلع ضرسه أو يفارق منزله .. فآثر الثانية .

وكان للشيخ ناصر موقفه من ذلك الاجتهاد فناقش بـه والده ، وقدم إليه البراهين الدامغة من النقل والعقل ، فلم يستطع لها رداً ، ولكنه لزم الصمت ولم يجب . ولعله قـد رجع عن اجتهاده هذا فيما رجع عنه من آرائه على يد ابنه المحدّث .

ويفند الشيخ تهم خصومه في موضوع الخلاف بينه وبين والده ، ويؤكد رضاه عنه بمختلف الدلائل ، من ذلك أنه عهد إليه دون سائر أخوته بأمر هام لم يؤثره به إلا لثقته التامة بـه . ويقول الشيخ إن ذلك الأمر معروف عند أخوته وسائر قرابته .

مجهود جبار :

وركز الشيخ من بين الموجهين له على المرحوم السيد رشيد رضـا ، الذي يعتبره من أكبر الرجال أثراً في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .

يقول الشيخ إن لصلته العقلية بالسيد رشيد قصة ، ويلخصها لنا في ما يلي :

أول مـا ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربيـة كالظاهر وعنترة والملك سيف ، ومـا إليها .. ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها ، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية . وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة « المنار » فاشتريته ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد يصف فيـه كتاب « الإحياء » للغزالي ، ويشير إلى محاسنه ومآخذه . ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ، ثم أمضي لأتابع موضوع الإحياء في الإحياء نفسه ، وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ العراقي ، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه . ومن ثم أقبلت على قراءة الكتاب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه ، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات . وأحسب أن هـذا المجهود

الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إليّ المضي في ذلك الطريق، إذ وجدتني أستعين بشتى المؤلفات اللغوية والبلاغية وغريب الحديث لتفهُّم النص إلى جانب تخريجه ».

وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النسخ والتلخيص، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات، تبلغ صفحاتها ألفين واثنتي عشرة في نوعين مختلفين من الخط، أحدهما عادي، والثاني دقيق علق به في الهوامش تفسيراً أو استدراكاً. ولعمر الحق إنه لجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام، ناهيك بطلبة الجامعات ممن لا يملكون أي عزيمة تسعفهم بالصبر على التحقيق والمتابعة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذ قد تجاوز العشرين من العمر!

ولا جرم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفتى أيامئذ، كان ذا أثر كبير في تمرسه بهذا الضرب من العمل العلمي، فهو، وإن كان لا يستحوذ على رضاه بصورة تامة، قد شق له الطريق إلى تقدم أعلى في هذا المضمار.

ومن خلال هذه الحياة، وتلك النشأة، وهاتيك الملابسات، يتراءى لي أن ثمة عوامل خفية كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق، لتجعل منه في النهاية واحداً من كبار خَدَمة السنّة المطهرة في ديار الشام.

نعمتان ومحسنان:

وحول هذه المؤشرات غير المنظورة يقول الشيخ: إن نعم الله عليّ كثيرة لا أحصي لها عداً، ولعل من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات. أما الأولى فقد يسرت لي تعلم العربية، ولو ظللنا في ألبانية لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا عن طريق العربية. وأما الثانية فقد قيضت لي فراغاً

من الوقت أملؤه بطلب العلم ، وأتاحت لي فرص التردد على المكتبة الظاهرية وغيرها ساعات من كل يوم . ولو أني لزمت صناعة النجارة – التي حاولت التدرب عليها أولاً – لالتهمت وقتي كله وبالتالي لسدت بوجهي سبل العلم ، الذي لا بد لطالبه من التفرغ .

ثم يضيف الشيخ إلى ما يعتبره من التوفيقات الربانية ما تيسر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزة ، وكان لهما إحدى أكبر مكتبات دمشق ، إذ كانا يمكنانه من كل كتاب يعوزه الاطلاع عليه ، فيسمحان له باستعارته لزمن غير محدود ودون أجر .. حتى يأتيهما طالب للكتاب فيبعثا إليه فيرده إليهما ، وبذلك فسح لهذا المنهوم الذي لا يشبع من العلم أن يجد تحت تصرفه أعداداً لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمس الحاجة إليها .

طلائع المعركة :

ويحدثنا محدث الشام عن أهم الأحداث التي عرضت له منذ اشتغاله في الدعوة إلى سبيل السلف ، فإذا هي صورة تكاد تكون مكرورة من الأحداث التي اعترضت مسيرة السابقين إلى هذا المسلك من أهل الحديث .

فهناك المشاكسات التي يلقاها من بعض المشايخ لغير ما سبب سوى إغراقهم في التعصب المذهبي . وهو أمر طبيعي إذ لا مندوحة من التصادم بين متعارضين ، أحدهما يعتبر الدين التزاماً تاماً باجتهادات الفقهاء دون التفات إلى الدليل الذي أخذوا به ، ولا أثر التغيرات الزمنية في مدى المطابقة بين الدليل والاجتهاد . والآخر يرى الدين هو ذلك الوحي الذي يجب أن يحكم تصرفات الناس جميعاً ، فكل مرجع سواه معرّض للصواب والخطأ ، وليست المذاهب الفقهية سوى وسائل مخلصة لتحديد مقاصده ، وإيضاح ما قد يغمض منه على الكافة .

وتأتي مؤلفات الشيخ فتفسح السبيل لعنصر آخر ينضم إلى أسباب الشحناء ، ربما لا نكون مغالين إذا شبهناه بالحسد .

والمؤسف أن يتطور هـذا التفاعل إلى حد الخصومة التي تخرج بالخلاف إلى حد الوقيعة .

وإلى القارىء بعض اللمحات التي تصور له مدى الخصومة بين الفريقين .

يقول الشيخ : كانت أولى هذه المشاكسات أن جماعة من المشايخ ، وبينهم من كان يتوقع منه نصرة السلفية ، قد نظموا عريضة يزعمون فيهـا أني أقوم بدعوة وهابية تشوش على المسلمين ، وجعلوا يجمعون لهـا توقيعات الناس ، ثم رفعوهـا إلى مفتي الشام ، فأحالها بدوره إلى مدير الشرطة ، الذي استدعاني وناقشني في الأمر ، ثم انتهى الموضوع إلى غير شيء .

وذات يوم سألني صديق من زملاء الدراسة عن حديث يتعلق بثواب الصيام فأوضحت له ضعفه ، وكان هذا قد سمعه من خطيب الجمعة يستشهد بـه على المنبر ، فلم يتمالك أن عاد إلى هذا الشيخ الخطيب ليذكر له ما عرفه من ضعف الحديث والمرجع المثبت لذلك . فما كان من هـذا إلا أن وقف خطبته التالية على الهجوم على طريقة السلف ، وراح يتهم أصحابها بالوهابية ويصفها بالضلال، ومضى يحذر الناس من مقاربتهم ، ويدعوهم للحفاظ على أبنائهم من دعاتها .

ولم يكن مجموع المستمعين إلى تلك الخطبة على سواء في قبولها أو ردها ، فحدث بعض الهرج والمرج .. والشيخ ناصر بينهم يسمع ويرى ، ولا يجد مجالاً للكلام .

وهكذا واصل الشيخ الخطيب هجومه على الدعوة وأهلها في خطب متتالية ، حتى خيفت الفتنة ، وتدخل رجال الخفية في الأمر . وأقبل أحدهم على الشيخ ناصر يحاول منعه الصلاة في ذلك المسجد ، بأسلوب ظاهره النصيحة ، وباطنه الوعيد والتهديد .

وكان محالاً أن يقف الخلاف عند هذا الحد بعد بروزه في العرائض وعلى المنابر ، إذ راح الخصوم يمارسون كل الذرائع التي يخيل إليهم أنها موهنة من عزم الشيخ ، وأقل ذلك دعوة طلبة العلم إلى مقاطعته والحذر من مجالسته .

ويعقب الشيخ على هذه الأحداث بقوله : « لقد كان لهذا كله آثار عكسية لما أرادوه ، إذ ضاعفت من تصميمي على العمل في خدمة الدعوة حتى يقضي الله بأمره .

في سبيل الدعوة :

ومن هذا المنطلق تبدأ مرحلة النشاط الدؤوب في عمل الشيخ ، وها أنذا ألخص أمليته عن ذلك فيما يلي :

يقول الشيخ : « لقد بدأت الاتصال بالمعارف والأصدقاء وأصدقائهم ، وجعلت من الحانوت ندوة نجتمع بها ، ثم رأينا الانتقال إلى دار أحد الأنصار ، ثم إلى واحدة أخرى أكبر ، ومن ثم استأجرنا إحدى الدور لهذه الغاية ، وجعل الحضور يتكاثرون ، حتى ليضيق بهم المكان . وبلغ النشاط مستوى عالياً في قراءة الحديث وشروحه وأسانيده . واستمر هذا دأبنا حتى أثمرت مساعي المعارضين لهذا الاتجاه فضيّق علينا ، ثم ألغيت الاجتماعات ، وانفض السامر . وها نحن أولاء حتى الآن لم نخلص من هذه المضايقات ، نجتمع حين يكون ذلك ممكناً ، وإذا حيل بيننا وبين الاجتماع انقطعنا إلى التأليف والتحقيق اللذين لا نستطيع الانقطاع عنهما » .

ويحدثنا الشيخ عن أهم ما واجهه من هذه المضايقات فيقول : « كان من آثار هذا الإقبال الطيب الذي لقيته الدعوة أن رتبنا برنامجنا لزيارة بعض مناطق البلاد ما بين حلب واللاذقية إلى دمشق . وعلى الرغم من قصر الأوقات التي خصصت لكل من المدن فقد صادفت هذه الرحلات نجاحاً ملموساً ، إذ جمعت العديد من الراغبين في علوم الحديث على ندوات شبه دورية . يقرأ فيها من كتب السنّة ، وتتوارد الأسئلة ، ويثور النقاش المفيد . إلا أن هذا التجوال قد ضاعف من نقمة الآخرين ، فضاعفوا من سعاياتهم لدى المسئولين ، فإذا نحن تلقاء مشكلات يتصل بعضها برقاب بعض » .

ويذكر فضيلته بعض الأمثلة من هذه المشكلات، فمرة يدعوه وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن، ليبلغه طلب مفتي أدلب منع الشيخ من دخول ذلك البلد، وإبعاده إلى منطقة الحسكة، ومرة أخرى يتلقى دعوة من الشرطة بوجوب مواجهة سماحة مفتي دمشق، فلم يسعه سوى التوجه إليه، وإذا مكتب سماحته حافل بالمشايخ، الذين حشدوا لهذه الغاية. وأثير بعض النقاش، إلا أنه لم يستمر طويلاً إذ لم يكن من خطة القوم استمراره، واكتفى سماحته بأن وجه إلى الشيخ تهمة إثارة الفتنة، مستدلاً على ذلك بحادثة قريبة، خلاصتها أن فتى قد دخل أحد المساجد للصلاة فلاحظ أن عدداً من رواد المسجد لم يلتحقوا بالجماعة بل ظلوا منتظرين حتى جاءهم إمام من مذهبهم، فانتظموا خلفه في جماعة ثانية. فلم يتمالك الفتى أن أعرب عن استغرابه لهذه الظاهرة، وذكّر أهلها مخالفتهم للهدي النبوي في هذه التفرقة، فما كان منهم إلا أن أهووا عليه بالضرب والركل داخل المسجد.

ومع أن الشيخ لم يكن قد سبق له معرفة بذلك الفتى، فقد أبى المشايخ إلا أن يحملوه تبعة عمله، لأنه بنظرهم هو المسبب لكل نشاط فقهي جديد في هذا البلد، ولا بد أنهم يعلمون أنه لا يقر تعدد الجماعات بسبب منافاة هذا التعدد لصريح السنّة وتطبيقات السلف.

وتحت التهديد اضطر الشيخ إلى توقيع تعهد بألا يقدم على الخطابة في الناس.. وكان ذلك تعهداً غير ذي موضوع بالنسبة إلى الشيخ، لأنه غير ذي صلة بالخطابة أصلاً.

ويختم المترجَم عرضه المؤسف بهذا الخبر الغريب، وهو أن نقمة الخصوم قد تجاوزت حدود المضايقات إلى إباحة الدم، وذلك بما أذيع عن فضيلة رئيس رابطة العلماء من أنه أفتى بقتله!

وما أدري لماذا أغفل الشيخ خبر اعتقاله في القلعة التي سبقه إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم.. فلعله نسيه أو ضيع ذكراه

خلال الأحداث الكثيرة التي لا يزال يواجهها في سبيل الدعوة ، أو لعله أغضى عن ذكرها لأنه يعدّها من التوفيقات الربانية ، إذ أتاحت له الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكروا يوماً بلقائه ، فضلاً عن الدخول معهم في حوار عدّل الكثير من أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية .

حدة لو خفّت :

ومع أن السمة الأساسية في أخلاق العلماء هي الأناة وطول النفس مع المخالفين ، وفي الشيخ منها الكثير ولله الحمد ، إلا أن في طبيعته إلى ذلك لوناً من الشدة قـد تبلغ أحياناً حد العنف حتى مع محبيه فضلاً عن مخالفيه .. وما أدري لذلك من تعليل سوى شدة) الثقة بنفسه وبما توافر له من رؤية لما يعتقد أنه الحق . ومن هنا كانت جرأته في النقد لكل اجتهاد يخالف ما ثبت لديه حتى ولو كان ذلك الاجتهاد صادراً ممن لا يكتم أثرهم وفضلهم ..

في ص ٢٣٩ من كتابه « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » يعقب على كلام للإمام السيوطي قائلا : (والحديث أورده السيوطي في « اللآلي » شاهداً للذي قبله .. ولا يصلح لذلك من وجهين . الأول: أنه موضوع لما تقدم بيانه .. وهو سكت عليه فأساء ، وليته على الأقل نقل كلام البيهقي الذي سبق في تضعيفه . الثاني : أنه مخالف للمشهور له . ثم إن الحديث يعارض حديثاً صحيحاً سبق ذكره فدل ذلك على وضعه أيضاً » .

وفي ص ٢٤١ يناقش قولاً لشيخ الإسلام ابن تيمية في حديث يحكم بأنه من الموضوعات على الأعمش ، فيعقب الشيخ على ذلك الاستدراك : « وجملة القول أن الشطر الأول من الحديث ينجو من إطلاق القول بوضعه لهـذه المتابعة التي خفيت على ابن تيمية وأمثاله » .

وفي ص ٣٧٤ يورد كلاماً للإمام النووي في استحباب قراءة «لإيلاف قريش»

عند السفر لأن ذلك «أمان من كل سوء» أخذاً بقول الإمام أبي الحسن القزويني، فيستدرك الشيخ ناصر عليه بقوله : « قلت : وهـذا تشريع في الدين دون أي دليل إلا مجرد الدعوى ، فمن أين له أن ذلك أمان من كل سوء ؟ » .

وهكذا يعقب على كل قول لا يجد له سنداً صحيحاً ، ولو كان المنقول عنه من أكابر الأئمة .. وإنما يفعل ذلك انسياقاً مع منهجه العلمي الذي يرى أن كل تعبد لا يستند إلى دليل ثابت من الكتاب والسنة لا مردود له من الخير ولا أثر له سوى الإسهام في تبديل الشريعة وتغييرهـا من حيث لا يشعر الفاعلون له أو القائلون به .

وقد لاحظنا ظواهر شدته بارزة في بعض هذه الصيغ التي كان من الميسور أن يعدل عنها إلى ألين منها ، ولكنها - كما أسلفت - الثقة بالعلم تنسيه أصول المجاملة ، فيطلق رأيه في أصرح التعابير . وقد وضع نصب عينيه الحق الذي يؤثره على كل شيء حتى نفسه ، إذ لا يستنكف أن يرجع إلى حكم كان قد ردّه في بعض تحقيقاته ، بعد أن عثر على الحقيقة القاطعة في بعض تنقيباته .

ولا أتردد في القول بأن لشدة شيخنا هذه آثارها السلبية في نفوس أولئك الذين يمالئونه الخصومة . ولعله ، لو عدّل أسلوبه في حوارهم ، كان أقرب إلى الاستجابة والسلامة . ولا غرو ، فما زالت الكلمة الطيبة ، مقرونة بالابتسامة الرضية ، أنجع أسلحة الدعاة في كسر شوكة المكابرين . أقول هذا وأنا لا أقل عن الشيخ نصيباً من تلك الحدة ، وسبحان من خلق الناس كما يشاء لما يشاء .

ولعلي لا أفارق أصل الموضوع إذا ما عرضت هنا إلى موقفي من (معارك) الشيخ .. تلك التي أطلقت ألسنة خصومه بالكثير من النقد منشوراً في المقالات أو معروضاً في مؤلفات ، أو منطوقاً في الاجتماعات . وقد بسطنا القول في بعض هذا الجانب أثناء الحديث عن المشكلات التي أثيرت بوجهه في دمشق وبعض المدن الشامية الأخرى .. وطبيعي أن حركة ينهض بها ذو علم لإحياء السنة والدعوة إليها لا بد أن تثير غضب المخالفين لها أياً ما كانوا ،

وهكذا انداحت مساحة المعارك هذه حتى تجاوزت سورية إلى مختلف الأقطار الإسلامية .. ويستحيل على متتبع هـذه الأحداث أن يكتم شعوره بإزائها ، فإما مقلد لا يرى السلامة في غير التزام المذهب ، ويعتبر كل محاولة للتحلحل خطراً يهدد الدين نفسه فهو مضطر لمقاومة أفكار الشيخ بكل ما أوتي من قدرة. وإما ذو اهتمام بالحديث النبوي ، يرى الكتاب والسنّة هما الأصل وليست المذاهب سوى طرائق اجتهادية لتقرير المراد فيه . وعلى هذا ، فالالتزام بنظره مقصور على هـذا الأصل دون غيره .. وعلاقته بالمذاهب لا تعدو الاستضاءة بجهد أئمتها للوصول إلى صميم الحق ، فمثل هذا الفريق لا غرابة إذا انحاز إلى جانب الشيخ في مقابل أولئك المخاصمين له .

وأنا هنا أعلن دون تردد أني بجانب الشيخ ، أنافح عن دعوته للرجوع إلى الكتاب والسنة وفهمها على منهج السلف ، ثقـة مني بأن في هذا المسلك (إحياء للتفكير الإسلامي الحر .. وإزالة للجمود الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي) ولكني لا أرى ضرورة لتبني أسلوبه العنيف في مجابهة المخالفين لطريقته ، التي تشبه إقدام طبيب على إجراء الجراحة الكبرى في علة يكفي بها قليل من الدواء أو الدلك .

قصة أبيات :

غير واحد من الإخوان سألني عـن موقفي من حملات بعضهم على أبي عبد الرحمن فأجبت :

قالوا : ألا كلمة في الشيخ تنصفه ... فقد طغى الجور حتى في الموازين
شنت عليه حروب لا يسوّغها ... عقل يرى الحق في ظل البراهين

فقلت : فوق ثنائي مـــا يبلّغه ... محدّث الشام عن خير النبيين
وردّه الجيل للوحي الجليل يد ... مـــا إن يكابر فيهـــا غير مفتون
وحسبه أنه هز العقول وقــــد ... باتت من الحجر والتقليد في هُون

فأصبحت ذات وعي ليس يعجزه ... التمييز ما بين مفروض ومسنونِ
والدين سر من الرحمن بيّنـــه ... رســـوله ، وسواه محض تخمين
والجامدون حيارى ليس في يدهم ... إلا روايــــة مجروح لموهون
فما عسى أن يقول الشعر في رجل ... يدعوه حق عداه ناصر الدين !
وأي ضيرٍ إذا فردٌ تجاهلــه ... وقـــد فشا فضله بين الملايين !

وقد توهم بعض هؤلاء الأخوة أني بهذه الأبيات أقتحم المعركة كمقاتل مستعد لمجابهة المخالفين بالعنف نفسه الذي تتميز به ردود أبي عبد الرحمن . ولذلك كان استغرابهم بالغاً عندما رأوني أتألم لقسوة التعابير التي أوردها في الكلام على أخ لنا عزيز ، خبرناه في ساحة المحن فوجدناه أهلاً لكل تقدير وتوقير . ومهما تبلغ أسباب الخلاف بينهما فما كان لها أن تؤدي إلى ما أدت إليه أخيراً ، لو التزم كلاهما مبدأ الدفع بالتي هي أحسن .

وأعود الآن لأؤكد في إصرار مضمون الأبيات في تقرير فضل شيخنا على الجيل ، وإخلاصه لدين الله – مهما تقلبت الأمور – فوق الشبهات .

أمثلة ذات دلالات :

قلت إن شدة الشيخ تسير مع منهجه في إنكار كل ما لا يتفق مع الصحيح من الأثر ، ويدخل في ذلك موقفه مع نفسه في مثل هذه الحال .

يقول في كتابه «صفة صلاة النبي ﷺ» : وهو يحاور العلامة ... التويجري في بعض تعقيباته على الكتاب : « وأرى من تمام الشكر – للشيخ التويجري – أن أعترف بإصابته الحق فيها ، وأني رجعت إلى رأيه في :

١ – تفسير المأثم والمغرم .

٢ – قوله في الصلاة إنها أعظم ركن من أركان الإسلام .

٣ – تفسير جملة « والشر ليس إليك » . (وقد) صححت ما جاء في نقلي عن « البدائع » »[1] .

وفي الكتاب نفسه أيضاً – ص ١٧ – يقول: « تبين لي أن الحديث ضعيف، وكنت اتبعت المناوي في تصحيح الإسناد ، ثم تيسر لي الوقوف عليه » .

وفي مقدمته « على الطحاوية » – ص ٢٩ ط ٤ – يقول : « تبين لي أنني وهمت في توهيم المؤلف » . وذكر الحديث الذي سبق أن ضعّفه ثم عاد عن تضعيفه بعد مراجعة الترمذي .

وفي هذا الكتاب يقول – ص ٥٧٨ رقم٢ – عن بعض الأحاديث التي سبق أن قدّر صحتها : « وأقول الآن : كلا . ولا أدري كيف وقع هذا ، فالسند ضعيف كما هو مبين في تخريج المشكاة » .

ثم يقول – ص ٦٠٠ رقم ٣ – : « هذا ما كنت قلته منذ عشر سنين ثم يسر الله لي جمع كثير من طرقه ، فتبين أنه – الحديث موضوع التحقيق – صحيح بمجموعها » .

وهناك استدراكات عدة على نفسه من هذا الضرب ، وكلها ذات دلالات تؤكد إنصاف الشيخ لكل ذي حجة وأن الحق أحب إليه من نفسه .

---

(١) انظر الكتاب ص ٧ ط ٦ .

حوار وتعقيب :

وبين يدي ، وأنا أسطر هــذه الكلمات ، مسجل حوار دار بين الشيخ وبعض شباب الدعوة في دار الحديث بالمدينة ، أيام المؤتمر الذي دعت إليه الجامعة الإسلامية للبحث في شئون الدعوة والدعاة ٢٤-١٣٩٧/٢/٢٩ هـ. وفي هذا المسجل يثير أحد طلابنا النبهاء الفضلاء مسألتين يريد من الشيخ جوابه عليهما : الأولى انصراف بعض المنتسبين إليه إلى بعض الشئون الجانبية بتضخيمها واعتبارها من كبريات المشكلات بين المسلمين ، مع تجاهله أو جهله الأخطار الهائلة التي تهدد الإسلام نفسه . أمـا الثانية فموقف الشيخ من أولئك الرجال الذين تعرضوا لنقد أحد الدساتير التي يراد بها تفكيك بنيـة المجتمع الإسلامي وإقامته من جديد على غير أساس الإسلام ، فأخذوا بالسجن والعذاب الأليم ، وانتهت حياة بعضهم في غياهب السجون .

أما جوابه على النقطة الأولى فلا يخرج عن رأيه المعروف بأن الإسلام كل لا يتجزأ ، فلا يسير فيه ولا كبير ، بل كل آدابه وعزائمه من حيث وجوب الالتزام سواء . وإنما جاءت العقدة من الموضوع الثاني، إذ قطع الشيخ -حفظه الله- بان أولئك المعارضين لذلك الدستور لم يسجنوا ولم يمتحنوا في سبيل التوحيد. وكل دعوة إلى إسلامية الدستور في ظل الفساد القائم لا يعدو كونه لفظاً للزينة، ولهذا لم يعر فضيلته الموضوع أي اهتمام ، لأنـه لا يرى من الحكمة معالجة الأمور الشكلية ، بل الواجب هو العمل للأهم فالأهم ، والأهم هنـا هو إصلاح عقائد المسلمين وتركيز الدعوة على أساس (التصفية) من البدع و (التربية) على التوحيد .

ولكي يؤكد الشيخ مذهبه في ذلك يقول : إن المسلمين متفقون على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية بيد أنهم مختلفون على الطريقة التي تحقق هذه الغاية ، وعنده أن التزامهم التوحيد هو الذي يزيل أسباب الخلاف فيمضون إلى هدفهم صفاً واحداً .

ثم يأخذ في نقد الواقع الديني في سورية ، ليرينا أن تقويم اعوجاجه أهم المهات في المرحلة الراهنة . وإلا فستظل كل دعوة لإقامة الدولة الإسلامية عملاً سياسياً لا ينهض على أساس صحيح .

تلك خلاصة مبسطة لمقررات الشيخ في تلك الأمسية ، حاولنا أن نستوعب بها أهم أفكاره ، وسنحاول الان أن نعقب عليها ببعض الملاحظات التي نرجو أن تساعد على جلاء الموضوع ، الذي كثر متناولوه والمدندنون حوله في هذه الأيام ، ولزيادة الإيضاح نتناول أفكار شيخنا الفاضل فقرة فقرة .

١ - يريد فضيلته أن يقتصر عمل الدعاة على تصحيح العقيدة في التوحيد بردها إلى أصولها في الكتاب والسنة. لأن ذلك وحده السبيل الموصلة إلى تحقيق الدولة الإسلامية . ونحن نتساءل : الخلاف الذي شق الصدر الأول من المسلمين إلى فئتين متناحرتين في صِفّين والجمل وكربلاء ... أكان صادراً عن خلاف في فهم التوحيد ومن أجل تصفيته من البدع ، أم كان خلافاً اجتهادياً حول الحكم والأصلح لمصلحة الأمة ؟

ولا ننتظر جواباً على هذا التساؤل ، لأن أحداً لا يتهم علياً أو معاوية ومن معهما من الرعيل الأول بالاضطراب في هذا الجانب ، وسيؤكد معنا أن الخلاف الطاحن ، الذي ذهب بعشرات الألوف من أمة محمد ﷺ أيامئذ لا يعدو حدود الرغبة في الحفاظ على نظام الحكم الإسلامي الأصيل .. الذي دعا صفوة الصحابة من قبل إلى تقديم إقامته على مواراة جثمان نبيهم الأعظم .

٢ - لقد جعل الله تبارك اسمه هجرة المسلمين إلى المدينة - في حينها - فرض عين على كل قادر منهم « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم

من شيء حتى يهاجروا .. ٨-٧٢ » فهل ثمة من تفسير لهذه العزيمة غير ضرورة التجمع لتحقيق الدولة ، التي ستتولى تنظيم المجتمع الجديد ، وإطلاق الطاقات الربانية لحمل دعوة الله إلى عباد الله حيث كانوا .. وإلا فأي مستقبل كان ينتظر دين الله ، لو ظل رسول الله وصحابته في مكة يتلقون سيول البلاء تحت سلطان الكفر ، الذي يأبى أن يهادنهم لحظة حتى يردهم عن دينهم إن استطاع .

والحركة الوهابية نفسها .. من كان يضمن بقاءها واستمرار مدها إلى اليوم وحتى قيام الساعة بمشيئة الله، لو لم يعطف عليها سبحانه قلوب الإمام محمد بن سعود وقومه ، فيحوطوها بتأييدهم ، ويبذلوا لنصرتها أنفسهم وأموالهم .. حتى تستوي على سوقها دولة للتوحيد تقدم بما حققته من الأمن والعدالة ، النموذج الصالح لإمكانات الإسلام وقدرته غير المحدودة على إسعاد الإنسانية ، وإعطائها الحلول الحاسمة لمشكلاتها المستعصية .. ولا عجب فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

٣ - ولنقف قليلاً مع قول أبي عبد الرحمن للطالب « أنه هو الذي سجن في سبيل التوحيد » . فنسأل أنفسنا : أحقاً كان اعتقاله في كلتا المرتين من أجل التوحيد ؟

والحق أن ثمة دافعين .. أما أولهما فظاهر في أن الشيوخ الذين شكوه ، وأثاروا عليه المسئولين وأشباه العامة ، لا يختلفون معه في الحق الذي يدعو إليه ، ولا يحاولون رد أدلته على صحة مذهبه ، ولكنهم يخشون انصراف الناس عنهم ، فهم يحاربون كل دعوة إلى الإسلام المصفى حفاظاً على (زعامتهم) التي ليس لها من دوام إلا بتملق أوهام العوام . ولو أرادوا وجه الله حقاً لما استعانوا بالجاهليين على أهله ، بل لسلكوا معهم سبيل الحوار الذي يؤدي لا محالة إلى غلبة الوحي على الأهواء عندما يكون الإخلاص للحق هو رائد الجميع .

أما ثاني السببين فعائد إلى خوف أصحاب السلطان من الإسلام نفسه ،

إذ هم واثقون أن كل كلام في الإسلام الصحيح هو تشهير بحكمهم وتسفيه لأحلامهم .. وقد جربوا أن يستكشفوا سريرة الشيخ في هذا المضمار عندما سألوه رأيه في النظام القائم فأعلن خصومته له بسبب مخالفته لحكم الله . فكان جوابهم على ذلك استبقاءه في المعتقل بعد أن كانوا على وشك الإفراج عنه .

ليته يعيد النظر :

في محاضرة للمفكر الإسلامي الدكتور جعفر شيخ إدريس بعنوان « في منهج العمل الإسلامي » يقول : « إن صحة العقيدة شرط في صحة الإسلام وصحة العمل الإسلامي . هذه قاعدة صحيحة . لكن ناساً من المسلمين غالوا في تفسير هذه القاعدة وأخطؤوا في تطبيقها ، ودعوا إلى هجر كل شيء حتى يفرغوا من تأسيس العقيدة . هذا موقف قليل العلم والفقه .. وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد .. » .

ثم يبين المحاضر محاذير هذا الأسلوب قائلاً : « فمن الأخطاء التي تبنى على هذا الموقف أننا يجب أن نكف عن الكلام في نظام الإسلام السياسي والاقتصادي ، وفي إصلاح مشاكل المجتمع ، ويلزم القائلين بهذا الفهم الخاطىء أننا أيضاً يجب أن ندع الحديث في الصلاة والزكاة والصوم والحج والزواج والطلاق .. لأن كل ذلك ليس من شئون العقيدة »[1] .

ولعلي لا أعدو الواقع إذا قلت إن المحاضر لا يريد بهذا الكلام سوى بعض أنصار أبي عبد الرحمن ، الذين وقفوا جهودهم على مباعدة القدمين ، وجمع اليدين تحت الذقن في الصلاة ، ومهاجمة كل من لا يفعل ذلك بالنقد المنفّر ، دون أن يعرجوا بكلمة على رزايا الإسلام والمسلمين في العالمين !

ولقد جاءني قبل أيام أخ لنا من محبي الشيخ يذكر في أسف أن الشيخ

(١) مجلة « المجتمع » .

في بعض مساجد المغرب قد قصر دروسه على نقد مذهب القوم في إسبال اليدين ، دون أن يتعرض ببنت شفة لأي من التيارات الهدامة التي تعلن الحرب على الإسلام كله في المغرب ، وذلك أثناء بعثته للدعوة صيف ١٣٩٥هـ .. كأن نصرة الدين وإحياء السنّة موقوفان على رد المغاربة إلى القبض أو الوضع بدل الإسبال !

وأخيراً .. ليت شيخنا الفاضل يعيد النظر في أسلوبه، ليكون أقوم بحاجة الدعوة ، وأقدر على اجتذاب القلوب، وأكثر إنصافاً لأولئك الفتية المجاهدين .

من التوحيد الخالص :

بقيت لنا كليمة حول مفهوم التوحيد بالنسبة لأسلوب الشيخ أبي عبدالرحمن، ولإشارات الدكتور المحاضر ، فمن المعلوم بداهة أن توحيد الخالق جل وعلا يقتضي الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، على الوجه الذي أخبر به وثبت عن رسوله ﷺ في الكتاب الحكيم والسنة المطهرة ، مع اليقين التام بوجوب الالتزام لكل ما أمرا ونهيا . ومن صفاته سبحانه أنه الحكم والحاكم ، ومن مقتضيات ذلك الإقرار بأنه المتفرد بحق التشريع لمصلحة عباده ، فليس لأحد منهم أي حق في إصدار أي تشريع يخالف القواعد المحكمة في الوحيين .

هذه حقيقة لا أتصور قيام أي خلاف حولها ، وبموجبها تكون الدعوة إلى التوحيد شاملة لكل ما يتعلق بحقوقه تبارك وتعالى . فبكونه الحاكم والحكم وجب ربط الأفكار بتشريعه على اعتبار أنه النظام الأمثل الذي لا يقبل سواه، ولا استقرار إلا به ، كما يجب التركيز اليقيني على قصر كل عبادة به وحده ، بوصفه المالك لكل شيء وبيده وحده النفع والضر والحياة والموت .

وينسحب هذا الحكم على سائر أنواع الأوامر والنواهي « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ٣٣/٦٣ » .

وإذن فلا مجال لإغفال الكلام المبين عن أي من هذه الجوانب ، لأنها كلها من مقتضيات التوحيد الخالص، ولا مسوغ البتة للفصل بينها وبين أصول العقيدة لأنها داخلة في مضمونها.. فإذا حالت ظروف بعض الدعاة دون التعرض لموضوع السياسة الشرعية فلا حق لهم بالإنكار على الموضحين لهذا الجانب من الدعاة الآخرين ، إذا وجدوا في أنفسهم القدرة على تحمل المسئولية بشأنه ، فضلا عن أن يوجهوا إليهم التجريح لمجرد كونهم لا يحصرون عملهم في نطاق ما وقفوا عنده بحكم ظروفهم الخاصة . ذلك لأن التركيز على ضرورة الحكم الإسلامي منبثق من الإيمان بتوحيد الحاكمية التي هي حق الله وحده في عباده ، كحقه في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات .

تأليف وتحقيق :

وعن الاستطلاع العاشر يجيب أبو عبد الرحمن بأن عمله في التصنيف يشمل العشرات من الكتب ما بين تأليف وتحقيق ، وما يتصل بذلك من فقه للحديث وتخريج له ، وتمييز لرتبته من الصحة والسقم . وكنماذج من جهوده في هذا المضمار نورد في ما يلي عنوانات بعض هذه الأسفار :

١ – سلسلة الأحاديث الصحيحة. ٢ – سلسلة الأحاديث الضعيفة . ٣ – صفة صلاة النبي ﷺ. ٤ – تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد . ٥ – حجة النبي ﷺ. ٦ – حجاب المرأة المسلمة. ٧ – نصب المجانيق في قصة الغرانيق. ٨ – منزلة السنة في الإسلام. ٩ – وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة. ١٠ – فهرس المخطوطات بالمكتبة الظاهرية .

من المعد للطبع :

١ – الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب. ٢ – مختصر صحيح البخاري. ٣ – قاموس البدع. ٤ – حجة الوداع. ٥ – مختصر العلو للذهبي . ٦ – الرد على ابن حزم في حديث المعازف. ٧ – الروض النضير في ترتيب معجم الطبراني الصغير .

بعض المطبوع من تحقيقاته :

١ – تحقيق الجامع الصغير وزياداته – صحيح الجامع – (ستة مجلدات) .
٢– ضعيف الجامع الصغير (أربعة مجلدات). ٣– مشكاة المصابيح (ثلاثة مجلدات).
٤ – شرح الطحاوية في العقيدة. ٥ – مختصر كتاب الإيمان لابن تيمية .
٧ – مختصر صحيح مسلم للمنذري . ٨ – كتاب العلم لأبي خيثمة .
٩ – اقتضاء العلم العمل للخطيب. ١٠ – رسالة في الصيام لابن تيمية .
١١ – المسح على الجوربين للقاسمي. ١٢ – صحيح ابن خزيمة – مع الأعظمي – (ثلاثة مجلدات) .

بعض مخطوطات حققها :

١ – التعليقات الجياد على «زاد المعاد». ٢ – تخريج أحاديث سنن أبي داود.
٣ – الترغيب والترهيب للمنذري. ٤ – الحج المبرور (لعلوشي) .
٥ – الأحكام لعبد الحق الإشبيلي. ٦ – السنّة لابن أبي عاصم .
٧ – ضعيف أبي داود .

أحب هذه المصنفات إليه :

ويرى الشيخ أحب هذه الأعمال العلمية إليه هو مختصره لصحيح البخاري ، ويعود ذلك إلى ما ينطوي عليه من كبار الفوائد وروائع الخصائص .

وقد تفضل الشيخ علينا ببيان مفصل عن هذه المميزات وددنا لو اتسع المجال لإثباته جميعاً ، ولكن ما نحن بصدده لا يتصل بهذا الضرب من التفصيل ، وحسبنا أن نجتزىء من تعريف ذلك العمل بأنه جهد جليل يسهل لأهل العلم ، وبخاصة المعنيين منهم بصحيح البخاري ، الانتفاع بكنوزه المختلفة ، ذلك لأن اختصاره لم يقم على حذف شيء من كتبه ولا من أبوابه ، إلا حين يكون الباب بمثابة كلمة (فصل) خالياً من أي مضمون . ففي هذه الحال يحذفه مبقياً

على رقمه في ذهن القارىء ، إذ ينتقل من رقم ما قبله إلى رقم مـا بعده دون تغيير في صورة الأرقام ، ممـــا يساعده على استخراج الحديث المطلوب وفق الفهارس المنظمة على هذا الأساس . هذا إلى عناية دقيقة بأنواع الأحاديث من موصولة ومعلقة وموقوفة ، مع إعطاء كل منها رقمـاً مميزاً بالحجم واللون ، وما إلى ذلك من شروح للغريب وإيضاح لبعض الجمل الغامضة .

ولعل أهم ما يلفت النظر في عمل الشيخ هنا هو مـا يشير إليه بقوله : « قد يكون في بعض الأحاديث الموصولة جمل توهم القارىء العادي أنها في الصحة كأصل الحديث ، وليست كذلك في الواقع ، لأن لها علة لا ينتبه إليها إلا أهل العلم ، والمصنف نفسه لا يعني صحتها » .

ويمثل الشيخ لهذا النوع بحديث عائشة (رض) عن بدء الوحي الذي جاء فيه « أن النبي ﷺ لمـــا فتر عنه الوحي كان يصعد إلى الجبل ويهم أن يتردى منه » .

يقول أبو عبـد الرحمن : « فهذا مرسل ليس من حديث عائشة .. » وهو لا يكتم توقعاته حول مثل هذا الكلام فيقول : « أعلم أنه قد يفتح عليّ نقداً جديداً .. ولكن وجوب بيان العلم وحرمة كتمانه يحملانني على ألا أبالي الناس رضوا أم سخطوا » .

حلم ينتظر التحقيق :

وهنا تعرض لي فكرة ذات صلة وثقى بهـذا النوع من الخدمة العالمية لصحيح البخاري ، كم أتمنى لو يقيض الله من ينهض لتحقيقها من أهل العلم .

لقد أحاط أئمة الحديث ذلك الصحيح بألوان من الشروح أمدت الفكر الإسلامي بروافد ثرة من المعرفة ، إلا أنها لا تزال تنتظر العزائم التي تحسن تصنيفها وفق الموضوعات والأغراض ، فتجمع بين كل تحفة وأختها في تنظيم مفهرس يقرب لطالب العلم أبعاد تلك الدقائق الفوائق . ولا جرم أن العبء

من الضخامة بحيث تنوء به العصبة أولو القوة ، فحبذا لو اجتمع لهذه المهمة أعلام يمثلون كبريات المؤسسات العلمية كالأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجامعة القرويين بالمغرب ، ومجامع البحوث في الرياض والقاهرة وغيرهما ، إذن لحققوا عملاً عظيماً لا يطيقه إلا الصُبَّر الغُيَّر الواقفون أعمارهم على خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إنه الحلم .. ولكنه غير مستحيل التحقيق .

تصفية وتربية :

وفي الإجابة على الفقرة الثانية عشرة يملي علينا فضيلته ما يلي :

من الناحية الفكرية والعلمية أرى حالة المسلمين اليوم خيراً منها قبل ٣٠-٤٠ سنة ، فلقد كنا قبل ربع قرن نشكو قصور المسلمين في العلوم العصرية ، وطالما تكلم المصلحون في ذلك .. ثم جاءت نتيجة هذا التحرك بإقبال الجيل على هذه العلوم مع الإعراض شبه التام عن الجانب الآخر ، وأعني بـه العلوم الإسلامية . وفي ذلك ما فيه من الخطر على مصير هذا الجيل .

ويرى الشيخ أن هذا ينطبق على مجموع الوطن الإسلامي دون تفريق . ثم هناك ناحية ثانية هي المستوى الخلقي الذي صار إليه الجيل الإسلامي على اختلاف أحواله وأجناسه . . فثمة تدن في الخلق ينذر بشر مستطير ، وبخاصة من ناحية الانغماس في حمأة المادة والتكالب على الدنيا، مما أنذر به رسول الله ﷺ أمته في أحاديث كثيرة كحديث البخاري في الصحيح: « ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا .. » وكقوله ﷺ : « إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال » .

يقول الشيخ :

« أما علاج هذا الوضع فأعتقد أنه يتوقف على أمرين: (التصفية والتربية) وأعني بالتصفية تنقية الإسلام من كل دخيل وشائب ، والسبيل إلى ذلك أولاً

تصفية السنّة مما داخلها من موضوع وضعيف ، ثم تفسير القرآن على ضوء هذه السنة الصحيحة ، ومـا كان عليه السلف الصالح من تصورات ومفهومات . وهذا الأخير لا يمكن التحقيق عنه إلا بدراسة علوم الحديث والجرح والتعديل. وأنا لا أعني بذلك أن نقف بالتفسير عند الحدود التي انتهى إليها السلف ، بل علينا أن نلتزم منهج السلف في التفسير ، وفي التزامه توحيد للاتجاه ومنع للتفرقة.. وتتناول التصفية التي أريدها مـا وصل إلينا من العلوم الإسلامية والأفكار الإسلامية فنستبعد منها كل مـا يخالف المنهج السليم ، كذلك تتناول التصفية الفكر الإسلامي من الشوائب الدخيلة ، التي تتسلل إلى أفكار المسلمين المعاصرين عن طريق الدراسات الغربية ، وبصورة خاصة الفلسفة وعلوم التربية والفنون مما يتسع فيه المجال لدس كثير من السموم المفسدة للفكر الإسلامي .

ويقول الشيخ في التربية: « وأريد بالتربية تنشئة الجيل على العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ، وأخص بالذكر تربيـة الصغار على العبادة.. دون الإكثار من الكلام على فائدة العبادة من الناحية المادية كما يفعل البعض ، وإذا كان لا بد من ذكر الفوائد المادية فهي آخر مـا ينبغي ذكره . ولا أنسى هنا تدريس التشريع الإسلامي ، فالذي أراه أن يكون تدريس هذه المادة على أساس التسليم التام لأمر الله والثقة بحكمته، دون الاهتمام الكثير ببيان فوائده المادية .. وفي ذلك تزويد لنفس الطالب بالمناعة من كل دس وتسميم . وأذكّر في هذه المناسبة بصلح الحديبية وأهمية التسليم لحكم الله ورسوله .

نبدأ بأنفسنا :

وحول مضمون الفقرة الأخيرة من الاستطلاع يرى الشيخ أن حال المسلمين تتفاوت حسب وضعهم وأنظمتهم ، فعلى كل فئة من العلماء أن تستفيد من إمكانات مجتمعهـا إلى أقصى الحدود لإرشاد الجيل وتوجيهه وضبط مسيرته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . إلا أن الشرط الأساسي لتحقيق المجتمع الصالح

هو أن يتفق العاملون له على الأسس الصحيحة التي سبق بيانها ، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم يعمل كل في نطاق بيئته وإمكاناته في هذه السبيل ، حتى يتاح لهم التجمع في بيئة تمكنهم من العمل الحر لإتمام هذه الغاية ، مع العلم أن أول واجبات هؤلاء تطبيق هذا المنهج في أنفسهم ومن تحت يدهم ممن يؤثرون فيهم . وإلى هذا يشير الداعي الذي يقول : « أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم في أرضكم » . وقديماً قيل : « فاقد الشيء لا يعطيه ».

نظرة تحليلية :

والحق أن في آراء الشيخ بشأن الجيل الإسلامي لنظرات عملية لا تتجاوز إمكانات العاملين ، وتتسع لمختلف الجهود المخلصة مهما تبلغ من الضآلة أو الضخامة .

وأحب أن أضيف إلى هذه الملاحظات الواعية إشارة إلى حقيقة ليست عن هذه الملاحظات ببعيدة ، ولكنها تتطلب إبرازاً أكبر مما اعتاد المفكرون الإسلاميون أن يعمدوا إليه عند الكلام عنها ، إنها واقعية الجيل الذي نعالج موضوعه ، ذلك الجيل الذي أسمح لنفسي بأن أطلق عليه اسم (الرافض) وهي صفته الملموسة في حياته كافة .

إنه يحمل هوية المسلمين ، ومنه يتألف سواد المسلمين عند الإحصاء ، ولكنه غير مستعد أن يقبل تحكيم الإسلام في أي من تصرفاته ، خارج حدود العبادات المكتوبة – هذا إذا أخذ بهذه العبادات أو بعضها – .

وأنا لا أعني بهذه الخاصة صنفاً دون صنف ، أو طبقة دون أخرى من هذا الجيل ، بل أعني الجيل كله دون استثناء إلا من رحم الله .. وقليل ما هم .

وعّاظ يحدثونك عن الإسلام وهم يبكون أو يكادون ، فإذا تتبعت أحوالهم لم تجد فيها من الإسلام إلا قليلاً ، ولا سيما في بيوتهم التي يعشش فيها الشيطان ويفرخ ، وفي أبنائهم الذين لا يكادون يمتون إلى الإسلام بأي سبب .

وكتّاب يروّغونك بتهاويل ما يسطرونه عن الإسلام ، فإذا نظرت إلى سلوكهم وجدتهم أبعد الناس عن تلك المعاني .

وحكام يشيدون بالإسلام في كل مناسبة لهم فيها مصلحة ، ويسهمون في كل مؤتمر يحمل اسم الإسلام ، فإذا تطلعت إلى أساليبهم في الحكم لم تكد ترى من أثر للإسلام ، اللهم إلا جهادهم للقضاء على كل معالمه في حياة شعوبهم .

أجل .. إنه الجيل الرافض لنظام الإسلام .. وكل محاولة لتصحيح مسيرته لا نصيب لها من النجاح إلا أن تنطلق من صميم هذا الواقع . وقد أحسن الشيخ ، أحسن الله إليه ، حين جعل أول واجبات العاملين تطبيق ما يدعون إليه في أنفسهم ومن تحت أيديهم ، وذلك هو المنطلق السليم لكل عمل يستهدف تصحيح هذا الواقع الأليم . أما ما يتصل بتجمع الملتزمين لكامل الإسلام في بيئة تمكنهم من العمل الحر لاستكمال رسالتهم ، ففي تعقيباتنا لتصريحات فضيلته في « دار الحديث » ما يغني عن الإعادة هنا . والله المستعان .